الفصل التاسع:

ما حقيقة السبي البابلي والعودة الفارسية؟!

أحمد الدبش

مازال أصحاب وحراس الفكر الآسن من الأكاديميين كعادتهم، يشددون على أن غزوة " نبوخذ نصر " (*) والسبي اليهودي(**)، حدثا في بلادنا فلسطين، ولا في أي مكان آخر، بالرغم من أن التنقيب الأثري الذي قلب تراب فلسطين ظهراً على عقب لم يؤد إلى أي أثر يربط غزوة " نبوخذ نصر " بها، ولم يتوافر لدينا نصوص ونقوش بابلية تشير إلى الحملة البابلية بقيادة " نبوخذ نصر " على بلادنا فلسطين، وبالأخص مدينة القدس، وتدميرها. ولكن السؤال المطروح: أين كانت غزوة " نبوخذ نصر "، وسبي اليهوديين، الذي يسمى بالسبي البابلي؟!

إنني أجد نفسي مجبراً علي تأجيل الإجابة علي هذا السؤال، إلى موضعه المناسب، وذلك بعد استعراض ما جاء في التوراة عن هذا الحدث، وما سجله التقليد العربي اليماني عن غزوة " نبوخذ نصر " إلى حضور.

تسجل التوراة في سفر الملوك الثاني (٢٣: ٣٦): " كان يهوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك، وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم.. وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل آباؤه ".

" في أيامه [يهوياقيم]صعد نبوخذ ناصر ملك بابل، فكان له يهويا قيم عبداً ثلاث سنين. ثم عاد فتمرد عليه. فأرسل الرب عليه غزاه الكلدانيين، وغزاة الآراميين، وغزاة الموآبيين، وغزاة بني عمون وأرسلهم على يهوذا ليُبيدها حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبيده الأنبياء..

ثم اضطجع يهوياقيم مع آبائه، وملك يهوياكين ابنه عوضا عنه. ولم يعد أيضاً ملك مصر يخرج من أرضه، لان ملك بابل اخذ من نهر مصر إلى نهر الفرات كل ما كان لملك مصر. كان يهوياكين ابن ثماني عشرة سنة حين ملك، وملك ثلاثة اشهر في أورشليم.. في ذلك الزمان صعد عبيد نبوخذ ناصر ملك بابل إلى أورشليم، فدخلت المدينة تحت الحصار. وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل علي المدينة، وكان عبيده يحاصرونها. فخرج يهوياكين ملك يهوذا إلى ملك بابل، هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيانه، وأخذه ملك بابل في السنة الثامنة من ملكه.. وسبي كل أورشليم و كل الرؤساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي، وجميع الصناع والاقيان. لم يبق احد إلا مساكين شعب الأرض. وسبي يهوياكين إلى بابل. وأم الملك ونساء الملك وخصيانه وأقوياء الأرض، سباهم من أورشليم إلى بابل، وجميع أصحاب البأس، سبعة آلاف، والصناع والأقيان ألف، وجميع الأبطال أهل الحرب، سباهم ملك بابل. وملك ملك بابل متنيا عمه عوضاً عنه، وغير اسمه صدقيا " - سفر الملوك الثاني (٢٤: ١ - ٢٠).

انقسم الرأي بين الأورشليميين، فريق يدعو لمحاربة بابل وملكها " نبوخذ ناصر " وفريق يدعو إلى عبودية بابل، وأهم هؤلاء كان إرميا

النبي، عميل البابليين في أورشليم: " هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: هكذا تقولون لسادتكم: إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي علي وجه الأرض، بقوتي العظيمة وبذراعي المحدودة، وأعطيتها لمن حسن في عيني. والآن قد دفعت كل هذه الأراضي ليد نبوخذ ناصر ملك بابل عبدي، وأعطيته أيضاً حيوان الحقل ليخدمه. فتخدمه كل الشعوب. وابنه وابن ابنه، حتى يأتي وقت أرضه أيضاً، فتستخدمه شعوب كثيرة وملوك عظام. ويكن أن الأمة أو المملكة التي لا تخدم نبوخذ ناصر ملك بابل، والتي لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل، إني أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء، يقول الرب، حتى أفنيها بيده.. وكلمت صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام، قائلا: أدخلوا أعناقكم تحت نير ملك بابل واخدموه وشعبه واحيوا.. اخدموا ملك بابل واحيوا، لماذا تصير هذه المدينة خربة " - سفر أرميا (٢٧: ٤ - ١٧).

" وفي السنة التاسعة لملكه [صدقيا]، في الشهر العاشر في عاشر الشهر، جاء نبوخذ ناصر ملك بابل هو وكل جيشه علي أورشليم ونزل عليها، وبنوا عليها أبراجاً حولها. ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشرة للملك صدقيا، في تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة، ولم يكن خبز لشعب الأرض فثغرت المدينة، وهرب جميع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك. وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين، فذهبوا في طريق البرية. فتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في برية أريحا، وتفرقت جميع جيوشه عنه. فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى ربلة، وكلموه بالقضاء عليه

وقتلوا بني صدقيا أمام عينيه، وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس، وجاؤوا به إلى بابل وفي الشهر الخامس في سابع الشهر وهي السنة التاسعة عشرة للملك نبوخذ ناصر ملك بابل، جاء نبوزرادان رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى أورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار. وجميع أسوار أورشليم مستديراً هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين " سفر الملوك الثاني (٢٥: ١ - ١٣).

" وأما الشعب الذي بقي في أرض يهوذا، الذين أبقاهم نبوخذ ناصر ملك بابل، فوكل عليهم جدليا بن أخيقام بن شافان " - سفر الملوك الثاني (٢٥: ٢٢).

وفيما عدا أسفار التوراة لا توجد مصادر أثرية تساند الذين أرخوا. وإذا كانت مرويات التوراة لا تصلح وحدها مصدراً تاريخي، ولكن بالاستناد إلى روايات الإخباريين العرب فهناك شبه إجماع على أن " نبوخذ نصر " (بختنصر) - وهو إمبراطور بابل (٦٠٥ - ٥٦٢ ق. م) - قد جرد بالفعل حملات عسكرية وصلت في مداها إلى أرفع جبال اليمن وأعزها، وهو جبل النبي شعيب المعروف تاريخياً باسم جبل حضور وهو جبل باليمن لحمير سمي بساكنة منهم، وهم ولد حضور بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن حميد الأصغر[1].

ويذكر لسان اليمن " الهمداني " في كتابه « الإكليل » الجزء الثامن، إن من الجبال المقدسة عند أهل اليمن جبل حضور وضين ورأس بيت

فائش من رأس جبل تخلي ورأس هنوم ورأس تعكر ورأس صبر. وفي رؤوس هذه الجبال مساجد مباركة مأثورة [٢].

وينقل لنا " الهمداني " في سفره الرائع « صفة جزيرة العرب » عن (مخلاف حضور)، قوله: وهو حضور بن مالك من ولده شعيب النبي ابن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور عليه السلام، وهو الذي قتله قومه، ويقال قتله أهل حضوري وعربايا. وكان بعث إليهم [٣].

وتذهب روايته في شيء من التفصيل، في كتابه « الإكليل »، الجزء الثاني: فبعثه [شعيب] إلى قومه رسولاً فكذبوه وقتلوه، فأوحى الله إلى برحيا بن اخنيان بن زربابيل بن شالثان من سبط يهوذا أن ائت بخت نصر، ويسمى بخت ناصر وهو عند أهل الكتاب الملك الأعظم، والفرس تقول إنه مرزبان من مرزابة الفرس سرحه كيبشتاسب وأمره أن يغزو العرب الذين قتلوا نبيهم، فيقتل مقاتليهم ويستبيح أموالهم، فأقبل برخيا من حران إلى بابل فأخبر بخت نصر، فتوجه لذلك من تلقاه مستأمناً من الأنبار وأتتهم جيوش بخت نصر، وهتف بهم هاتف:

سيغلب قوم غالبوا الله جهرة ::: وإن كايدوه كان أقوى وأكيدا
كذاك يضل الله من كان قلبه ::: مريضاً ومن والى النفاق وألحدا

فلما غشيهم الجنود هربوا يركضون إلى تهامة فلقيهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، ويردونهم إلى حضور يقول الله عز وجل: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾} [الأنبياء: ١١ - ١٣] [٤].

وتتفق رواية " الهمداني " هذه مع ما ذكره " الدّيبع الزَّبيدي " صاحب

« تحفة الزمن في فضائل أهل اليمن » من أن الله بعثه [شعيب] إلى أهل حضور، وهو جبل غربي صنعاء وبه قبره وبيته معروفة ومشهورة. وأهل حضور الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن بقوله تعالى:{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾} [الأنبياء: ١١ - ١٣]. وكان ظلمهم أنهم قتلوا شعيب بن مهدم الذي أرسل إليهم(٥).

ويروي " د. جواد علي " نقلاً عن " الطبري "، وآخرين: أن بختنصر (نبوخذ نصر) غزا أهل حضور (حضوراء)، وأعمل فيهم السيف وأجلى خلقاً منهم إلى أماكن أخرى، لأنهم كفروا وجحدوا نبوة نبي منهم أرسله الله إليهم، وهو " شعيب بن مهدم بن ذي مهدم بن المقدم بن حضور "، ولم يصدقوه، وكانوا أصحاب بطش وشدة وغلظة، فلما قتلوه، أوحى الله إلى نبي في عصره هو " برخيا بن أخبيا بن رزنائيل ابن شالتان"،وكان من سبط

" يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل "، أن يأتي " بختنصر "، فيأمره بغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم ولا أبواب، ويطأ بلادهم الجنود، فيقتل مقاتلهم، ويستبيح أموالهم، فأقبل " برخيا " من نجران، حتى قدم على

" بختنصر "، وذلك في زمان " معد بن عدنان "، فوثب " بختنصر "

علي من كان في بلاده من العرب، وجمع من ظفر به منهم، فبني لهم حيزاً على النجف وحصنه، ثم ضمهم فيه، ووكل بهم حرساً وحفظة، ثم سار في بلاد العرب فالتقى بعدنان بذات عرق، فهزم " بختنصر " عدنان، وسار إلى حضور، فانهزم الناس وفروا فرقتين: فرقة أخذت إلى ريسوب وعليهم عك، وفرقة قصدت وبار. أما الذين بقوا في حضور، وحاربوا بختنصر فقد احتصدتهم السيوف. ثم رجع ملك بابل بما جمع من السبايا، فألقاهم بالأنبار، وخالطهم بعد ذلك النبط، ومات عدنان. فلما مات بختنصر، خرج " معد بن عدنان " حتى أتى مكة، ثم ذهب إلى " ريسيوب " فاستخرج أهلها، وسأل عمن بقي من ولد " الحارث بن مضاض الجرهمي " وهو الذي قاتل دوس العتق، فأفنى أكثر جرهم علي يديه - فقيل بقي " جرشم بن جلهمة " فتزوج معد ابنته " معانة "، فولدت له نزاراً " [٦].

ونجد خبر غزوة " بختنصر " لأهل " حضور " مكتوباً في سفر أرميا (٤٩: ٢٨ - ٣٣): " عن قيدار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ ناصر ملك بابل هكذا قال الرب: قوموا اصعدوا إلى قيدار. اخربوا بني المشرق. يأخذون خيامهم وغنمهم، ويأخذون لأنفسهم شققهم وكل آنيتهم وجمالهم، وينادون إليهم الخوف من كل جانب. اهربوا. انهزموا جداً. تعمقوا في السكن يا سكان حاصور، يقول الرب، لأن نبوخذ ناصر ملك بابل قد أشار عليكم مشورة، وفكر عليكم فكراً. قوموا اصعدوا إلى أمة مطمئنة ساكنة آمنة، يقول الرب، لا مصاريع ولا عوارض لها. تسكن وحدها. وتكون جمالهم نهباً، وكثرة ماشيتهم غنيمة، وأذرى لكل

ريح مقصوصي الشعر مستديراً، وأتى بهلاكهم من كل جهاته، يقول الرب. وتكون حاصور مسكن بنات آوى، وضربة إلى الأبد، لا يسكن هناك إنسان، ولا يتغرب فيها ابن آدم".

أما النبي " برخيا " الذي يقول الإخباريون أنه هو الذي أشار علي" بختنصر " أنْ يغزو حضور، فهو " باروخ بن نيريا (نريا) " - سفر أرميا (٤٥: ١).

وهكذا تتفق روايات الإخباريين العرب مع سفر أرميا (٤٩: ٢٨ - ٣٣)، بأن اتجاه حملات نبوخذ نصر كان بلاد العرب. وبالرغم من ذلك نجد من لا يزال يصر على أن روايات الإخباريين العرب هشة، وأن سهام الريب توجه إليها من كل جانب، ولعل أهم ملاحظتهم علي هذه الروايات:

- أن " برخيا " النبي كان يقيم في نجران، وأنه ذهب إلى بابل ليحرض
" نبوخذ نصر " ضد العرب، والمعروف أن الرجل إنما كان يقيم في أورشليم.

- أن حاصور التي يتحدث عنها أرميا في التوراة، إنما تقع في شمال بلاد العرب، وبالأخص في بلادنا فلسطين.

هكذا يظهر لنا أن المرتكز لقراءة كتب الإخباريين العرب، وما جاء في أسفار التوراة، هو الانطلاق من بدهية أن أرض التوراة هي بلادنا فلسطين. علي الرغم من هذه القناعات فقد استعصى على العلماء العثور

علي حد أدنى ومعقول من الآثار التي تثبت " غزوة نبوخذ ناصر " إلى بلادنا فلسطين. ولن يعثروا.

ولدينا إشارة مهمة لعلاقات " نبوخذ نصر " بالقبائل والشعوب العربية، إذ تخبرنا الحوليات البابلية. أن ملك أكد أرسل في شهر كسلو (Kislev) من السنة السادسة [من حكمه ٥٩٩ ق. م]، جيوشه إلى أرض حاتي، وهي الحملة التي أسفرت عن الاستيلاء علي أملاك ومواشي وآلهة القبائل العربية، وأن الملك قد عاد إلى أرضه (بابل) في شهر أذار(Adar)[٧].

ويروي " بنيامين التطيلي " الذي دون رحلته في القرن الثاني عشر الميلادي: " وفي هذه الصحراء [بين اليمن والعراق] مضارب بني ركاب من عشائر تيماء. وفي تيماء يقيم شيخهم وحاكمهم الكبير حنان، وهي صقع واسع الأرجاء، امتداده مسيرة ستة عشر يوماً بين الجبال الشمالية. وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأية سيطرة أجنبية. وأهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الأماكن البعيدة. وهؤلاء الأعراب يعيشون عيشة بدوية، يبتون في الخيام، لا يعرفون بناء البيوت، دأبهم الغزو في أرض اليمن. ويعتقد أن بني ركاب قبيلة مديانية أو قتبية [سفر أخبار الأيام ٢: ٥٥]. وقد ورد ذكر هذه القبيلة في مواضع عديدة من التوراة، فكانت تنسب إلى جدها الأكبر " يونداب بن ركاب " [سفر الملوك ١٠: ١٥]. وقد ورد عنهم في قاموس الكتاب المقدس في طبعته الجديدة (ص ٤١٠) ما نصه: ولما غزا نبوخذ نصر اليهودية هرب الركابيون إلى أورشليم طلباً للنجاة " [٨].

وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه، من أن غزوة نبوخذ نصر كانت بإتجاة الجزيرة العربية، وقد وصلت في توغلها داخل شبه الجزيرة العربية إلى التخوم الغربية للهضبة اليمنية، أما ما ذكر عن أنهم هربوا إلى أورشليم طلباً للنجاة، فمن المحتمل أنهم هربوا من وجه حملة نبوخذ نصر أي من تيماء، باتجاه أورشليم اليمنية (*) طلباً للأمان والسلامة، لكن نبوخذ نصر استمر في غزواته حتى وصل إلى أرفع جبال اليمن، جبل حضور، وقد طال الهجوم والإحراق والسبي الكثير من العشائر العربية، وتتضح حدة المعركة وضراوتها وسعة رقعتها، بصرف النظر عن المبالغة فيها. فيما أورده " الهمداني "، إذ قال:

" وأرض العرب يومئذ خاوية وليس فيها بتهامتها ونجدها وحجازها وعروضها كثير أحد لإخراب بخت نصر إياها وإجلاء أهلها، إلا من كان اعتصم منهم برؤوس الجبال وشعابها ولحق بالمواضع التي لا يقدر عليه فيها أحد متنكباً لمسالك جنوده ومسُتن خيوله فاراً إليها منهم " (٩).

ويشير المؤرخ التاجر " ابن المجاور " في كتابه الشهير « تاريخ المستبصر »، الذي كرسه لتاريخ وجغرافية اليمن ومكة وبعض الحجاز، إلى السبي البابلي بقوله تحت عنوان ذكر نهر السبت: " قالت أهل الذمة إنه في أرض التيه. وحدثني يهودي صائغ بعدن قال: إنَّ نهر السبت في أرض يقال لها صيون، والأصح أنه في الحجاز ظهر وهو نهر رمال سيال يجرى من ليلة الجمعة إلى غداة يوم السبت لم يقدر الإنسان أنْ يعبره من شدة جريانه في ذلك اليوم، ويسكن باقي الأسبوع. وراء هذا النهر من اليهود مائة ألف ألف رجل وامرأة وهم زائدون على العدّ

خارجون عن الحدّ. والقوم عرب يعقدون القاف الألف في لغتهم، وفي جملة القوم أولاد موسى بن عمران عليه السلام. ويقال إنما حصلوا هؤلاء اليهود في هذه الأرض والأعمال إلا من غزوة نبوخذ نصر البابلي لليهود بأرض الشام وديار مصر(**) " (١٠).

ولما قضى " نبوخذ نصر " على مملكة يهوذا، قام بهدم الهيكل الذي بناه سليمان. وهناك صمت في التقليد اليهودي حول مصير تابوت العهد بعد هذا الحدث. أما التقليد العربي اليماني الذي دونه " وهب بن مُنبّه " - ورواه عنه " الهمداني " في كتابه « الإكليل » الجزء الثامن، فيقول: " لم يزل بنو إسرائيل يزحفون بالتابوت حتى كان في زمن الحارث بن مضاض الجرهمي بعد موت إسماعيل النبي عليه السلام، وبعد موت ابنه ووصيه نابت بن قيدار بن إسماعيل، فبدل بنو إسرائيل دين داود وسليمان صلي الله عليهما وانتحلوا علي الزبور كتباً انتحلوها.. والملك يومئذ بمكة وما والاها الحارث بن مضاض الجرهمي. فلما أتي بنو إسرائيل إلى مكة.. برز إليهم جرهم في مائة ألف، وعملاق في مائة ألف،.. فانهزم بنو إسرائيل ومن معهم ورموا بالتابوت. فأخذته جرهم وعملاق، فأتوا به إلى مزبلة من مزابل مكة، فحفروا له ودفنوه فيها.. فأخذهم الوباء بالغمّ.. فعمد الحارث بن مضاض إلى التابوت في تلك المزبلة فاستخرجه ليلاً. وأخذه هميسع (بن نابت قيدار بن إسماعيل). وكان عنده يتوارثونه وارثاً عن وارث إلى زمان عيسى بن مريم عليه السلام، فإنه أخذه من كعب بن لؤي بن غالب " (١١).

العودة الفارسية: كورش يأمر بإعادة المسبيين!:

يقص سفر عزرا (١: ١ - ٤) القصة الكاملة للعودة: " وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب يفهم أرميا. نبه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وبالكتابة أيضاً قائلاً: هكذا قال كورش ملك فار س جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء، وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه، ليكن إلهه معه، ويصعد إلى أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذي في أورشليم. وكل من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغرب، فلينجده أهل مكانه بفضة وبذهب بأمتعة وببهائم، مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم ". ويضيف " والملك كورش أخرج آنية بيت الرب التي أخرجها نبوخذ ناصر من أورشليم وجعلها في بيت آلهته. أخرجها كورش ملك فارس عن يد مثرداث الخازن، وعدها لشيشبصر رئيس يهوذا. وهذا عددها.. الكل أصعده شيشبصر عند إصعاد السبي من بابل إلى أورشليم " - سفر عزرا (١: ٧ - ١١).

وقد جاء شيشبصر إلى أورشليم والياً عليها وباشر بوضع أساسات بيت الرب " حتى إن آنية بيت الله هذا، التي من ذهب وفضة، التي أخرجها نبوخذ نصر من الهيكل الذي في أورشليم وأتى بها إلى الهيكل الذي في بابل، أخرجها كورش الملك من الهيكل الذي في بابل وأعطيت لواحد اسمه شيشبصر الذي جعله والياً. وقال له: خذ هذه الآنية واذهب واحملها إلى الهيكل - الذي في أورشليم، وليبن بيت الله في مكانه. حينئذ

جاء شيشبصر هذا ووضع أساس بيت الله الذي في أورشليم، ومن ذلك الوقت إلى الآن يُبنى ولم يُكمل " - سفر عزرا (٥: ١٤ - ١٦).

لقد هتف النبي أشعيا للملك كورش، وأطلق عليه لقب مسيح الرب، فنقرأ في سفره: " هكذا يقول الرب لمسيحه، لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً، وأحقاء ملوك أحل، لأفتح أمامه المصراعين، والأبواب التي لا تغلق. أنا أسير قدامك والهضاب أمهد. اكسر مصراعي النحاس، ومغاليق الحديد اقصف. وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ، لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك، إله إسرائيل " - سفر أشعيا (٤٥: ١ - ٥).

على أن هذا الفرح العام بصعود كورش، وبمرسومه الخاص بعودة السبي، لم يترجم فوراً إلى حركة عودة جماعية إلى أورشليم. ففي عهد الملك " داريوس "، ابن قمبيز وحفيد كورش، قاد هذه الموجه من العودة الثانية رجل يسمي زربابل، برفقة الكاهن يشوع، وهذا ما يكشف عنه سفر عزرا (٣: ٨ - ١٣)، (٤: ١ - ٥). وبعد عام من الانتهاء من بناء بيت الرب، نقرأ في سفر عزرا (٧: ١٢ - ٢٦) ما يلي: " من أرتحششتا ملك الملوك، إلى عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل إلى آخره. قد صدر مني أمر أن كل من أراد في ملكي من شعب إسرائيل وكهنته واللاويين أن يرجع إلى أورشليم معك فليرجع، من أجل أنك مرسل من قبل الملك ومشيريه السبعة لأجل السؤال عن يهوذا وأورشليم حسب شريعة إلهك التي بيدك، ولحمل فضة وذهب تبرع به الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي في أورشليم مسكنه. وكل الفضة والذهب التي تجد في كل بلاد بابل، مع تبرعات الشعب والكهنة المتبرعين لبيت إلههم الذين في

أورشليم، لكي تشتري عاجلاً بهذه الفضة ثيراناً وكباشاً وخرافاً وتقدماتها وسكائبها، وتقربها علي المذبح الذي في بيت إلهكم الذي في أورشليم. ومهما حسن عندك وعند إخوتك أن تعملوه بباقي الفضة والذهب، فحسب إرادة إلهكم تعملونه.. أما أنت يا عزرا، فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضع حكاماً وقضاة يقضون لجميع الشعب الذي عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك. والذين لا يعرفون فعلموهم. وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك، فليقض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس ".

بعد أربعة عشرة عاماً تقريباً من وصول عزرا، يأتي إلى أورشليم واحد من أبرز أفراد السبي، وهو " نحميا بن حكليا " - سفر نحميا (١: ١). وكان نحميا هذا قد تدرج في منصبه في البلاط الفارسي حتى وصل إلى منصب ساقي الملك الخاص. طالباً من ارتحشستا أن يرسله إلى يهوذا، لتحصين مدينة أورشليم " أنتم ترون الشر الذي نحن فيه، كيف أن أورشليم خربة، وأبوابها قد أحرقت بالنار. هلم فنبني سور أورشليم ولا نكون بعد عاراً. وأخبرتهم عن يد إلهي الصالحة علي، وأيضا عن كلام الملك الذي قاله لي، فقالوا: لنقم ولنبن - وشددوا أياديهم للخير " - سفر نحميا (٢: ١٧ - ١٨).

انتهى نحميا من بناء السور: " وكمل السور في الخامس والعشرين من أيلول، في اثنين وخمسين يوماً. ولما سمع كل أعدائنا ورأي جميع الأمم الذين حوالينا، سقطوا كثيراً في أعين أنفسهم، وعلموا أنه من قبل إلهنا عمل هذا العمل " - سفر نحميا (٦: ١٦ - ١٧) " وكانت المدينة

واسعة الجناب وعظيمة، والشعب قليلاً في وسطها، ولم تكن البيوت قد بنيت " - سفر نحميا (٧: ٤) " وسكن رؤساء الشعب في أورشليم، مدينة القدس، والتسعة الأقسام في المدن. وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكنى في أورشليم " - سفر نحميا (١١: ١ - ٢).

والسؤال المطروح ههنا: هل هناك أدلة أو شواهد أثرية، تؤكد رواية سفري عزرا ونحميا؟! الجواب ببساطة لا. تقف رواية سفري عزرا ونحميا وحيدة دون أي سند من مصدر خارجي، فمن الأمور المؤسفة حقاً عدم العثور حتى الآن علي أية نقوش أو كتابات أثرية تمكننا من تشكيل فكرة عن حالة المشرق العربي وتقسيمه الجغرافي والسياسي في ظل الاحتلال الفارسي. فكل ما عادت علينا به التنقيبات الأثرية هو محض نقوش متفرقة لا تسمح بأي حال من الأحوال بتشكيل صورة عن أوضاع الإقليم، مهما كانت عمومية. هذا يعني أن الخطاب الكتابي، في رسمه تسلسل الأمور في فلسطين إبان الاحتلال الفارسي، يعتمد بشكل كامل على تأويل روايات مسجلة في العهد القديم، وعلى سفري عزرا ونحميا تحديداً. ويرفض كثير من علماء الكتاب الاعتراف بأية صدقية تاريخية للسفرين، بل إن هناك من يرى بأنهما لم يكتبا قبل ما يسمى الانتفاضة الحسمونية. كذلك ثمة رأي قوي بين العلماء الكتابيين يقول بأن دوافع كتابة هذين السفرين لم تكن نقل الحقيقة التاريخية، وإنما عرض الفكرة (١٢).

لقد كان الغموض يلف التاريخ التوراتي طيلة المراحل السابقة، بل يستحيل من التأكد من حقيقة التاريخ التوراتي. فالتسلسل التاريخي مشوش

ونصوص المصادر فاسدة، خاصة الفترة التي أعقبت السبي: فلا نعرف الهيكل التنظيمي زمن " زيروبابل " ولا نعرف دور " عزرا "، ولا نعرف دور الولاية (State) الفارسية هذه، ولا وضع الكاهن الأعلى بين سنوات (٥١٧ - ٤٤٤ ق. م)، وأيهما جاء أولاً: عزرا أم نحميا. وبالمختصر فإن المؤرخ سيجد نفسه مواجهاً عدة إشكالات الأمر الذي يجعل الموضوع التاريخ مستحيلاً " [١٣].

يشير الباحثون التوراتيون، ويساندهم في ذلك أصحاب وحراس الفكر الآسن العربي في جامعاتنا ومراكز أبحاثنا. إلى وجود مقاطعة (يهوذا - يهد) في بلادنا فلسطين إبان الحكم الفارسي للإقليم، فها هو الباحث الألمع، صاحب الأفكار التوراتية " فراس السواح " يعلن بمنتهي صفاقة: " أن الشواهد الأثرية بخصوص مقاطعة يهود الفارسية تنحصر في طبعات الأختام علي الجرار الفخارية المعدة لتسويق منتجات الزيت والخمور وما إليها، وكذلك في قطع العملة المعدنية. تبدأ قطع العملة المعدنية التي تحمل اسم مقاطعة يهود بالظهور في المستويات الأثرية العائدة لأواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك شظايا الجرار الفخارية التي تحمل طبعات أختام تذكر اسم المقاطعة منقوشاً بالقلم الآرامي الخالي من الحركات الصوتية (ي هـ د) " [١٤].

ورغم أن الباحث « السواح »، يشير إلى وجود مقاطعة يهوذا في بلادنا فلسطين، إلا أنه ليس بين أيدينا أية وثائق مستقلة تثبت ذلك حيث ينفي علماء آخرون مثل هذه الإدارة. وعلى هذا فإن القائلين بوجود مقاطعة يهوذا مستقلة يعتمدون بشكل كامل على نصوص سفر نحميا،

وكذلك على قطعة نقود معدنية عثر عليها في فلسطين نقش عليها كتابة قرأها البعض (يهد)، بينما يفضل آخرون قراءتها علي نحو (يحنن) [١٥].

ومن الجدير بالانتباه، أن مرجعنا المستقل الوحيد عن هذه الفترة، هو كتاب « التاريخ » لـ " هيرودوت "، فهل ذكر " هيرودوت " وجود مقاطعة يهوذا أو إسرائيل؟! ففي مجال كتابته عن التقسيمات الإدارية للإمبراطورية الفارسية التي احتلوها في المشرق العربي يقول " هيرودوت " في القسم (٣: ٩١) التالي: " المنطقة الممتدة من مدينة بوزايدوينوس التي أسسها أمفيلوخوس بن أمفياراوس، وحتى مصر، هذا ما لم تكن تابعة للعرب الذين لا يدفعون شيئا - تعود بضرائب مقدرها ثلاثمائة وخمسون تالنت، ويتبع هذا الإقليم مجمل فينيقيا وفلسطين سورية وقبرص.. ".

ويعود " هيرودوت " في القسم (٤: ٣٩) من كتابه للحديث عن الإقليم بالقول: " أما الثاني فيبدأ ببلاد فارس ويستمر في الامتداد حتى البحر الأريتري، أولاً تأتي بلاد فارس ثم أشور ثم بلاد العرب، وتنتهي، وفق التقسيم الإداري بالطبع، قرب الخليج العربي قرب القناة التي شقها داريوس وتمتد حتى نهر النيل، والبقعة الممتدة من بلاد فارس حتى فينيقيا كبيرة وواسعة، ولكنها تضحي بدءاً من فينيقيا شريطاً ساحلياً ضيقاً يمتد من بحرنا عبر فلسطين السورية وحتى مصر حيث ينتهي هناك ويعيش فيها ثلاثة أقوام " [١٦].

إن غياب أية إشارة في كتابات " هيرودوت " إلى يهوذا، يمنحنا الحق العلمي في الاستنتاج بأنه لو سمع بذلك لسجله. وكل ما عرفه "

هيرودوت " أن فلسطين كانت جزءاً من مقاطعة (عبر النهر؟).

والسؤال المطروح ههنا: هل هناك عودة ليهودي السبي البابلي؟! بعد الانتصار الشهير الذي أحرزه " كورش " على البابليين، واحتلاله بابل ٥٣٩ ق. م، أعلن الامبراطور الفارسي (قراراً) أو (مذكرة) جاء فيها:

« الإله مردوخ طاف كل البلدان وبحث عن أمير عادل، أمير قريب من قلبه بوسعه أن يأخذه بيده؛ وقد ناداه باسمه:

يا كورش، ملك انزان! فعينه لسرير الملك..

لقد نظر الإله مردوخ.. نظرة فرح.

إلى أعماله الخيرة، وإلى قلبه العادل

وأمره بأن يذهب إلى مدينته

بابل.. وكصديق

ورفيق مشى إلى جانبه.. »

وتنهي أسطوانة كورش تدوينها المطول على هذا الوجه:

« إن آلهة سومر وآكاد التي

أجرعها نبونيد، علي أثر غضب

مردوخ العظيم، إلى بابل،

بناء علي أمر مردوخ، جعلتها

من جديد تحتل مذابحها بطمأنينة وهدوء ».

obeikandl.com

ويضيف كورش في صلاته قائلاً:

« كل الآلهة الذين أعدتهم

إلى مذابحهم، يومياً

أمام بعل مردوخ ونابو،

يدعون لي بالعمر الطويل!

وليتهم يحدثون الإله مردوخ، سيدي

عن كورش.. وعن

ولده قمبيز! »

وتشير الأسطوانة بالإضافة إلى ذلك، أن قورش:

« منح حق العودة لشعوب كل البلدان قاطبة » [١٧].

هنا يقول الرأي التقليدي بأن " قورش " سمح ليهودي السبي بالعودة إلى فلسطين. وذلك وفق (قرار كورش) أو (مذكرة كورش) المشار إليها آنفاً في سفر عزرا، بالرغم من أن (مذكرة كورش) لا تشير إطلاقاً إلى يهوديي السبي، ولم تصلنا أية وثيقة فارسية بخصوص هذا المرسوم الوارد في سفر عزرا.

وهذا ما أشار إليه " لمكة " بقوله: لقد بدأ الشك في الرواية التوراتية عن العودة، وعن الفترة الفارسية.

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل التاسع

(*) ملك بابلي حكم (٥٦٢ - ٦٠٥ ق. م)، ويعرف بالعربية " نبوخذ نصر "، ويرد في سفر أخبار الأيام الثاني (٦: ٣٦) باسم " بخت نصر " والتهجئة الصحيحة للاسم باللغة الاكادية " نبو - كودوررري - عوشو ".

(**) هو ذلك الخبر الذي أوردته التوراة، ولم تؤكده النقوش البابلية ذات الصلة، عن قيام ملك بابل " نبوخذ نصر الثاني " باقتياد أعيان مملكة يهوذا بعد القضاء عليها إلى بابل، وتوطينهم فيها.

(١) نشوان بن سعيد الحميري، **منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم**، ودواء كلام العرب من العلوم، ط ٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨١، ص٣٧.

(٢) الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، الجزء الثامن، تحقيق: نبيه أمين فارس، المكتبة الأزهرية، مصر، ٢٠٠٠، ص ١٢١.

(٣) الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، **صفة جزيرة العرب**، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط ١، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠، ص ٢١٠.

(٤) الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، الجزء الثاني، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، ط ٣، منشورات المدينة، بيروت، ١٩٨٦، ص (٢٦٠ - ٢٦١).

(٥) الإمام وجيه الدين عبد الرحمن بن علي الديبع الزبيدي، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص (٧٦ - ٧٧).

(٦) د. جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء الأول، ط ١، دار العلم للملايين - بيروت، مكتبة النهضة - بغداد، ١٩٦٨، ص (٣٤٨ - ٣٤٩).

(٧) عارف أحمد إسماعيل، **العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية منذ منتصف الألف الثالث وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد**، ط ١، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ١٩٩٨، ص ١٥٢.

(٨) د. أحمد سوسة، **أبحاث في اليهودية والصهيونية**، دار الأمل للنشر والتوزيع، أربد، ٢٠٠٣، ص (٥٢ - ٥٣).

(٩) **الهمداني، صفة جزيرة العرب**، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

(١٠) كمال الصليبي، **حروب داود الأجزاء الملحمية من سفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العبري**، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٠، ص (٢٩ - ٣٠) أورده: الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، **الإكليل**، الجزء الثامن، تحقيق: نبيه أمين فارس، المكتبة الأزهرية، مصر، ٢٠٠٠، ص ١٦٣ - بقوله: " فقرأت الألواح فأصبت فيها

أن أهل الألواح الحرث بن مضاض الجرهمي الذي سلب قومه تابوت بني إسرائيل حين قصدوا مكة. فاجتمعت جرهم وعدنان وطسم وجديس والعمالقة وجميع العرب والتقوا بني إسرائيل لقتالهم فهزموهم. وأخذوا التابوت علي بني إسرائيل، وله حديث يطول شرحه. وقد ذكر القصة كاملة وهبه بن منبه في تيجان الملوك".

(١١) زياد منى، **مقدمة في تاريخ فلسطين القديم**، ط ١، بيان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٠٢.

(١٢) جودت السعد، **أوهام التاريخ اليهودي**، ط ١، منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨، ص ١٠٣.

(١٣) فراس السواح، تاريخ أورشليم والبحث عن مملكة اليهود، ط ٣، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٢٣٣.

(١٤) **زياد منى**، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٣.

(١٥) **زياد منى**، المصدر نفسه، ص (٧٣ - ٧٤).

(١٦) مارغريت روتن، **تاريخ بابل**، ترجمة: زينة عازار ويمشال أبي فاضل، ط ٢، منشورات عويدات، بيروت - باريس، ١٩٨٤، ص (١٧٠ - ١٧٢).

(١٧) تومس طمسن وآخرون، **الجديد في تاريخ فلسطين**، ترجمة: عدنان حسن وزياد مني، ط ١، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤، ص ١٣٩. (نيلز لمكة، استخدام التاريخ ذريعة للاستيلاء علي الأرض).

* * *